

## قراءة فى الأعمال الشعرية للشاعر فاروق شوشة

بصدور الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر فاروق شوشة تتحدد قيمة فنية هامة فى ملامح شعر الستينيات بعد أن صدرت منذ عام ١٩٨٦م أعمال أمل دنقل، ويبدو أن صدور مثل هذه الأعمال لشعراء الستينيات قد أصبح ظاهرة أدبية ليس على مستوى الحركة الشعرية فى مصر بل على الساحة الشعرية العربية، حيث صدرت أعمال الشاعرين العراقيين سعدى يوسف وحميد سعيد والشاعر اليمني عبد العزيز المقالح والشاعر الفلسطيني محمود درويش.

ولا شك أن صدور هذه الأعمال فى هذه المرحلة يحمل دلالة واضحة مؤداها أن جيل الستينيات يحاول وهو فى أوج نضجه أن يقدم نموذج الشعرى للجيل الذى جاء بعده وهو يعطى تجربته فى وقت بعد فيه تأثير الموجة الأولى لشعر الرواد الذين كف بعضهم عن العطاء الشعرى إما بالموت أو الجذب أو الإحباط كما أن هذه الأعمال توحى بتأسيس حلقة وصل جديدة هى الحلقة الثانية فى حركة الشعر قبل أن يصعد صوت الجيل الثالث والرابع مبتعدا عن هذا التواصل الخلاق ضاربا فى بيداء الحدائث مرة أو بقصيدة النثر أخرى. لهذا كله جاءت هذه الأعمال تأكيدا لرسوخ حركة الشعر الحديث وأصالة الإبداع الذى قدمه الجيل التالى للرواد واستشرافا لمستقبل لا تنفصل فيه الأزمنة الأدبية ولا يتناثر

الصوت الشعري فى ساحة تزامت عليها الإحباطات الفكرية وكدرت طوحها الهموم الثقافية وضيققت عليها الكوارث السياسية الخناق. تأتي أعمال فاروق شوشة فى هذا الإطار لتكون لبنة حية فى بناء يقاوم - وهو ينمو - كل محاولات نفى الشعر عن الساحة العربية.

وتشمل هذه الأعمال خمسة دواوين شعرية هى «إلى مسافرة» و«العيون المحترقة» و«لؤلؤة فى القلب» و«فى انتظار ما لا يجىء» و«الدائرة المحكمة» وتمثل رحلة الشاعر منذ صدور ديوانه الأول عام ١٩٦٦م حتى الآن، ويتوقع القارئ أن يطالع فى صدر هذه الأعمال رؤية الشاعر لتجربته الشعرية ولكن الشاعر آثر أن يكتب كلمة بالغة الإيجاز حول رحلته الشعرية ولم يشف غليلنا بالإجابة على ما قد يثور فى نفوسنا من أسئلة حول مرحلة تكوينه الثقافى ومعتقداته الفكرية وتأثيراته الشعرية وشهادته الفنية على العصر الذى انغمس فيه وساهم فى كثير من نشاطاته، ولكن فاروق شوشة كان يتعجل لقاء القراء على أرض القصيدة ذاتها مؤثرا المواجهة كما يقول هو نفسه «وأعترف أن مساحة كبيرة تضم بعض قصائد هذه الدواوين الخمسة تبدو لأول وهلة وكأنها حديث عن الذات لكنها فى جوهرها ليست بعيدة عن هموم الآخرين. والكثير منها يرتبط - فى جوهره - بساحة الأحداث والتجارب التى تركت أثرها عميقا فى وجدان الانسان المعاصر». ثم يتحدث عن الأسلوب الفنى لقصائده وهو يعنى أنه قد اعتمد على اللغة باعتبارها نسقا لفظيا لا ينفصل عن السياق التاريخى لتراث القصيدة العربية كما لا يسقط فى هاوية الخواء الفنى باسم الحداثة أو يقع فى شبك النمط التقليدى بل

يلتزم الصدق وعفويته وطلاقة مشاعره مستجيبا لصوت الأصالة في ذاته والتطور في عصره يقول:

«يواكب هذا الهم هم فنى.. أن يظل النسق اللغوى لهذا الشعر عربى الوجه والملاحم والسمات غير هجين أو نسق لا يحاكي أساليب الترجمة ولا تستهويه «الموضات» الطارئة وإن ادعت الحداثة والرغبة فى التجاوز لا من حيث الصيغة والمعمار أو من حيث المفردات والتراكيب بعيدا كل البعد عن استرفاد الكلشيهات والقوالب التقليديه فى موروث الشعر العربى أو استدعاء المقولات الشعرية الجاهزة التى أصبحت فى عصور الضعف والتخلف نهبا شائعا يدعيه كل شاعر لنفسه ولا يخجل من انتسابه إليه».

ومن الواضح أن الشاعر يحس بأن اللغة تلعب الدور الأساسى فى تجربته الشعرية لا من حيث كونها تراكما لفظيا بل باعتبارها كونا ممتلئا بالإيقاع والصور والظلال والأصوات والفراغ والامتلاء والمساحة والتكثيف. ذلك أن لغة الشعر ليست مجرد توظيف المفردة فى نسق من الجمل الصحيحة ولكنها كائن يتلبس التجربة. فيشف ويعتم، يمتلئ ويفرغ، يتوتر وينبسط، تظل اللغة الشعرية لغة اختراق لا لغة اتساق بمعنى أنها تعادى المألوف وتنبثق من المخالفة لأنها تأخذ شكل الموهبة التى تستخدمها. ليست اللغة مجرد عنصر لتوصيل التجربة الشعرية بل هى وعاء العناصر الحية التى تشكل التجربة فإذا اقتربنا من جوهر الرؤية الشعرية فى هذه الأعمال وجدناها تجعل من الذات بؤرة انبثاقها، تتمدد حولها وقد تداعب نوعا غامضا من الوجود الجماعى

المفقود تنشُد نوعاً من الفردوس العام ولكنها تعود إلى احتضان الذات في صميمية ممتزجة مرة بالحسرة والإشفاق على النفس ومرة بتدليلها والانفتاح بها على عالم مليء بالشجن والحزن ولكن لا يعترضه الألم. أحزان الشاعر رقيقة ناعمة ولكنها ليست مريرة على الإطلاق، من التبسيط الشديد أن نطلق على رؤيته الفنية مصطلح الرومانسية وإن كانت هذه الرؤية لا تتناقض مع هذا المصطلح بشكل أساسي. لا يكتب الشاعر عن موضوع وإنما يجسد تجارب تنتمي إلى الوجود في شتى تحولاته غير أن هذه التجارب تفضي في النهاية إلى موضوع يحدد هوية اهتمام الشاعر وشواغله الشعرية وإذا أبحنا لأنفسنا أن نستخلص الموضوع من هذه الأعمال وجدناها تتجسد مباشرة في الحب والحزن والولع بالجمال.

في ديوانه «إلى مسافرة» الذي يضم إحدى وعشرين قصيدة تتبدى تجربة الحب في عناق حميم مع الحزن يقودهما حلم غامض يسعى الشاعر لتجسيده بل إننا كثيراً ما نحار ونحن نقراً قصائده عندما نحاول التعرف على الملامح الفارقة للرفاق الثلاثة: الحب - الحزن - الحلم. وهذا الديوان يشف عن تجربة عاطفية عميقة قدر للشاعر أن ينال حظه السعيد منها كاملاً ولكن طبيعة الحياة الغلبة تأتي إلا الفراق، ويندلع شوق متشح باللوعة خلف هذه المسافرة التي يجعل منها الشاعر مداراً للتحويلات فهي مرة طائر وأحياناً تكون قديسة أو نجماً يقول الشاعر:

قديستي

ما زال صوتك الندى في دمي

شيئا أثيريا أضمه وأحتمى  
رناته تدق أيامى تصب فى غدى  
تدقق من أعماق نبع دافئ القرار  
بالأمس ضمنى هنيهة وطار  
فرف خاطرى الملح واستدار  
وكدت ألمس النداء باليد

ثم يخاطب المسافرة كما لو كانت طائرا وفى الرمز نوع من المزج بين  
الحبيبة والحب ذاته يقول فاروق شوشة :

يا طائرى يا طائرى  
خطاك فى دمي تسوخ تنفض الأمان  
وقع خطاك فى الدرج  
وطرقة وطرفتان  
يا بابى الصغير يا جدارى الكبير  
تألق الطريق بالوهج  
وأشرقت من كوة يدان  
نديتان بالحنان  
يا طائرى يا طائرى  
شئ بأعماقى اختلج  
تفتحت فى الصدر شرفتان

ثم يخاطبها باعتبارها نجما فيقول :  
عينى على نجم بآخر السماء

فى هداة الكون جاس برهة وغاب  
لو يستطيع مد لى شعاعتين  
وأغرق العيون بالضياء

وعنصر التحولات فى هذا الديوان تجعله يتجاوز مفهوم الرومانسية البسيط كما أن محاولات التجسيد واختراق المؤلف فى الصورة الشعرية تجعل من إطاره الفنى خطوة واضحة متميزة داخل حركة الحدائة. ونلمح فى الديوان تراسلا حادا بين صوت الشاعر فاروق شوشة وأصوات «صلاح عبد الصبور ومحمود حسن إسماعيل ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب» وهو تراسل يقوم على وحدة العالم الشعرى الذى انغمس فيه هؤلاء الشعراء كل بطريقته الخاصة وهو عالم يتميز بالتركيز على الرؤية الباطنية وجلجلة الإيقاع وجموح الخيال وعذوبة الألفاظ وتماسك اللغة. وليس تراسل الشاعر مع هذه الأصوات إلا دليلا على أنه يحلق قريبا من نفس المدار وهو يحاول أن يصنع مداره الخاص وينجح فى ذلك تماما. وإذا كانت الذات والتجربة العاطفية تحظى بنصيب كبير إلا أن ثمانى قصائد فى هذا الديوان تتجاوز ذات الشاعر وهمومه الوجدانية الضيقة إلى الهموم القومية والوطنية والإنسانية وهو عدد يزيد عن ثلث قصائد الديوان ويقترب من نصفه وهذه القصائد هى :

«شهيد الكلمة» «الحصاد» «من فدائى إلى صديقته» «بغداد تتور»  
«يا مغرب» «الخلاص» «فلتنزل الستار» «من سفر أيوب».

فإذا جننا إلى ديوان «العيون المحترقة» وجدنا استمرار التجربة العاطفية فى إطار من النضج واتساع الحيلة وانكشاف المستور، وفى هذا

الديوان يلجأ الشاعر إلى قدر من التركيب الفنى للقوائد والغوص فى أعماق الشخصية ومحاولة رسمها باقتدار فى قصيدة «مرثية شاعرة عاشقة» و«تنويعات على لحن أساسى» وتظهر فى هذا الديوان محاولات التفلسف :

أسأل : يا مذلة السؤال

هل آن أن نعود للبراءة

لفطرة الإنسان حين يملك الإنسان

بقبض كفيه الضئيلتين زهوة الحياة

هل آن أن نعود للجراءة

لفطرة الإنسان حين يؤمن الإنسان

بقدره الغريق أن يلاطم الموج وأن يجاوز الردى

بحثا عن النجاة

هل آن أن نعود للبراءة

لفطرة الإنسان حين يعرف الإنسان

حقيقة الذى مضى

وجوهر الخبىء فى بقية الزمان.

وإذا كان ديوان «إلى مسافرة» يحفل بالوهج الأول لعاطفة تسعى لتحقيق الحلم فإن «العيون المحترقة» يوحى باتساع حيلة الشاعر الفنية وحذقه وقدرته على الغوص وراء السطح اللامع للآلى السهلة المنال يصير الشاعر أكثر مكرًا ودهاءً ومهارة. ويضم الديوان ثمانى عشرة قصيدة منها قصائد تعبر عن هموم جماعية وحزن نبيل وطموح تسنده شجاعة المواجهة وهى قصائد :

«كلمة الحزن» «باسم الكلمة» «لأنك الإنسان» «أحزان الفقراء» «تحت ظلال الزيزفون» «نداء سلام» «أصوات من تاريخ قديم» إن التعبير الشعري في «العيون المحترقة» يخطو بحذر نحو مزيد من الدهاء الفنى ولكنه يتمسك بخصائصه من حيث الشكل والمضمون معاً، فنحن نطالع فى هذا الديوان الولوج نفسه بالتركيز على الخاص والتعامل مع الحب باعتباره سرا يشيع فى الحياة قوة التغيير والتأثير ويأتى التعبير دائماً لا ليقتنص التجربة بل ليقدم ما تبقى منها بعد أن استنفد الشاعر حظه الواقعى من متعها وألمها. يقول فى قصيدة «كان حياتى»:

كان اسمك يدعونى أن أطوى الأسماء  
وأطوى الأيام.. فليس سواه  
شيئاً كالألم المسحور كوقع الحلم الهاتف  
استشعره فى وأخشاه  
كأن اسمك ينقر صدرى  
تلمس أعماقى الخضراء يداه  
تربت كفاه على دنياى  
وتغفو فى عيني رؤاه  
كان اسمك يغيرينى أن أعبر هذا الموج  
وأن أتحداه  
حسبى من رحلة أيامى  
قبس من وجهك ألقاه  
هل يكفى الآن بأيدينا  
أن تبقى منه نكراه

تعاود التجربة العاطفية بأفاقها الرومانسية الظهور بكثافة وغنائية  
في ديوان «لؤلؤة في القلب» الذى يحتوى على اثنتين وعشرين قصيدة  
تكاد تدور كلها حول «الحب» مع ثبات بعض الرموز وابتعاد الشاعر عن  
اللوعة والاقتراب من المشهد الخارجى للحب والمحبوب على السواء:

أروع من عينيك لا  
النجمتان تهديان خطوى الأمين  
منارتان تثقبان ظلمة السنين  
فأهتدى إليك  
وأعبر المدى الحزين  
أروع من عينيك لا  
سفينتى إلى مرافئ القمر  
وديعتى  
وزادى الكبير والسفر  
على شعاع مقلتيك  
يا بسمة مهاجرة  
من عالم الأثير والصفاء  
من روضة العبير والنقاء  
وضيئة وعاطرة

ويميل التعبير فى هذا الديوان إلى الإغراق فى الوصف بدلا من  
الغوص وراء نوع من التجسيد الحى للتجربة. موقف أقرب إلى الغناء  
وينعكس هذا الموقف على البناء الفنى الذى يجيء فى الغالب ساكنا  
يفيض بالنشوة.

بين عينيك موعدى  
يومنا القادم أحلى لم يزل طوع هوانا  
كلما شارفت الحلم خطانا واطمأنت شفتانا  
واستراحت مقلتنا  
وتمنينا فكان العمر أشهى من أمانينا وأغلى

إنه شاعر يغنى سعادته فى الحب ولهذا فهو أقرب إلى الإنشاد  
أقرب إلى عالم لا تسكنه اللوعة بقدر ما يسكنه الرضا.

يا حبنا الحبيس فى خزائن التذكار  
تجيئنا من بعد غيبة الربيع والأمطار  
محملا بزادك الوفير من بيارد الأسفار  
حكاية تؤنسنا  
تشعل فى شتائنا رغائب انتظار  
لعلنا  
نصنع منك عالما يعيشه الصغار  
ويشرق النهار

إن بهجة التجربة العاطفية فى «لؤلؤة فى القلب» تجعل من الإيقاع  
صورة للسكينة التى تظل وجدان الشاعر وهو إيقاع راقص يميل إلى  
الصيغة التقليدية فقد جاءت نصف قصائد الديوان تقريبا من الشعر  
العمودى ويقترب النصف الآخر من الشكل الحديث ولكنه يظل أميناً  
لهذا الإيقاع الغنائى الراقص الذى يبدأ ولا يتطور يتراكم ولا يبني يغنى  
ولا يشكل.

تبلغ تجربة فاروق شوشة الشعرية تمام نضجها واستوائها وتفجرها في ديوانه «في انتظار ما لا يجيء» في هذا الديوان يواجه الشاعر زمنا سريع التحول وعالما يتناقص جماله ويزداد قبحه ومسالك تنتهي إلى الخواء. حتى العشق يأخذ شكل التحول فهو ليس مجرد التعلق بامرأة جميلة أو حلم يرحل بين ضفافه إلى جسد باذخ الثراء والفتنة ولكن العشق يتخذ دلالة وجودية وربما صوفية ليصبح طريقا إلى الخلاص وليس مجرد طريق للسعادة. فالإنسان البسيط ينشد السعادة وقد يحصل عليها إذ سلك دروبها وسرعان ما يخبو بريقها أما الفنان والشاعر العميق فهو يبحث عن خلاص ليس لروحه فحسب ولكن للبشرية كلها من هنا فنحن نواجه في ديوان «في انتظار ما لا يجيء» ذاتا تحاول اللحاق بالعالم. ذاتا تنشد الآخرين ولا تبكي أحزانها وحدها بل ترثي خيبة الجميع. وإذا كانت الدلالات تتشابهك وسط غابة من الاحتمالات داخل القصيدة الواحدة حيث لا نتبين صورة الشاعر معزولة عن صورة الآخرين ولا صورة الزمن وهو ينفصل عن حركة المجتمع كله كما أن صورة المحبوب هي الأخرى تقفز من المسجد إلى المجرد فإن ثراء الاحتمالات وتعقد الموقف وتركيب البنية الفنية هو الذى يعطى لتجربة فاروق شوشة نضجا وللغته شكلها النهائى. يقترب الشاعر فى هذا الديوان من اللوعة التى يشعلها الألم أكثر من وقوفه على ضفاف أحزانه الأولى ولهذا نراه يعتصر ذاته فى محاولة لرؤية النور فى الظلمة والحب فى حومة الكراهية والخلاص وسط المكيدة يقول فى قصيدة «الرحلة فى بحار العشق».

يا محبوبى  
وحدى بعدك أعبّر هذا الليل الموحش  
أجتاز الفجر الكاذب هذا الوجه الممرور من الدنيا  
أعدو نحو شعاعة وعد من عينيك  
وأنهل ما يساقط من فيض الرؤيا  
فامتنحى بعض أمان حين أطيّر إليك  
اسألك بحق الساعات المخنوقة بين الجلوة والإطراق  
اكفف عنى ظمئى  
واحلل عقدة روحى  
حين يخف القلب إلى عتباتك يجثو  
ويلامس موطئ قدميك  
ثم يقول فى «حال من العشق»  
أواه من بعد الديار واستحالة المزار  
يا أيها المسافر الوحيد قف  
فالأرض غير الأرض والزمان خان  
غادر الأحباب  
صار الناس غير من عرفت فاسترح  
تداخلت مواكب المودعين والمشيعين  
والمنافحين عن بقاء لحظة من المرح  
قد آن للعجلان أن يطامن الخطى  
ويسترد من دماء نفسه بقية مضععة  
فليس فى نهاية الطريق غير هوة الأسف

تتراجع فى هذا الديوان صورة الذات المفردة وتظهر صورة وجدان يعى علاقة الذات بالعالم لا باعتبارها جزءا بل ينغمس فى محاولة لإدراك «الكل» الذى يتجاوز الجميع. والكل الذى يتجاوز الجميع فى هذا الديوان يتجلى فى معظم القصائد مما يوحى ببعده روحى صوفى أو رؤية ميتافيزيقية للوجود ويضم الديوان خمس عشرة قصيدة يقترب نصفها من هذه الرؤية وتغوص بقية القصائد فى محاولة للإفلات من الزمن الأول. الزمن البدائى الذى يحيط بالجسد إلى زمن لا نهائى يواكب الروح. ويتبدى حس المقارنة بين العالم الواقعى بقبحه والعالم المثالى ببهائه حيا ومثيرا فى معظم قصائد الديوان يقول فاروق شوشة فى قصيدة المغنى والشيخ نظام الدين :

يا شيخ نظام الدين  
يا وتد الأرض ويا أمن الدنيا  
يا من نور الجلوة شمع مجالسه المشهودة  
كأسك مفعمة بشراب العشق الأسمى  
وبراقك يحملنا فى دهليز الرؤيا  
ينجيننا من أسر الظلمة فى ساح اللقيا  
أيقظنا يا شيخ نظام الدين  
إننا موتى  
وسبات الموت طويل ما أقساه  
حدثنا يا شيخ نظام الدين  
إننا غرباء بهذا العصر  
نضيع وراء زحام لغاه

أدر كنا يا شيخ نظام الدين  
فدروب الحق تقود إلى كنفك  
هذا المتحلى بالياقوت وبالعسجد  
فمتى نلقاه  
الصوت المعول فى صحن المسجد  
ما زال يردد  
يا الله

وتتجاوب هذه القصيدة من حيث المعنى والمبنى مع قصيدة شمس  
الله فى قرطبة التى كتبها الشاعر من وحي زيارة لإسبانيا كما لا تغيب  
فى هذا الديوان صورة الوطن ولا صورة المدينة التى رحل إليها الشاعر فى  
صباه لكى يحقق أحلامه والتقى فيها برفاق العمر الذين يبدون فى قصيدة  
«فى انتظار ما لا يجىء» وكأنهم قد واجهوا جميعا الفشل والخيبة.  
يقول فاروق شوشة:

ها نحن فى دوامة الرمال ما نزال  
تسوخ فى شراكها أقدامنا  
نحمل أحلاما كسيرة مضضعة  
انفرط العقد الذى كناه. كم تناثرت حباته  
تفتت قلوبنا ولم نعد معا  
وشاخت النبرة فى شفاها وحشية عيوننا  
مذعورة خواطر الخريف فى رؤسنا  
يا أيها النشم البديد كم شهدتنا معا  
مشردين هائئين حالمين مقعدين

لكننا كنا معا

عمرا مديدا حاشدا مضيعا

إلى أن يقول:

وهمة ريفية التكوين لا نظنها تلين

لانت

ولنا

وانتهينا بددا مضيعين

فى ديوان «الدائرة المحكمة» اثنتا عشرة قصيدة منها اثنتان من الشعر العمودى ويبدو الشاعر فى هذا الديوان أمينا مع عالمه الشعرى فهو يحتفظ بعناصر تجربته الشعرية التى ترعرت بذورها عبر دواوينه السابقة حيث يتوهج صوت الحب ولكنه فى هذا الديوان حب يغوص فى عالم الحس تفوح رائحة الجسد من ثنايا قصائده كما تبدو البراءة ظلا غاربا وراء المناورات والحيل ويبدو الحصار محكما ولا يصبح الحب وحده الملاذ. كما تتضح صورة الوطن أقرب إلى القداسة ومركزا للولاء والانتماء كذلك برهن الشاعر على نبيله من خلال هذه المراثى التى خرجت دامية من وجدان شاعر يبكى أصدقاءه: صلاح عبد الصبور – فوزى العنتيل – عبد الحميد الحديدى. وربما كان خيرا ما يمثل رؤيته فى هذا الديوان هذه الأبيات التى وردت فى قصيدة «إلى عابرة» من ديوان «الدائرة المحكمة» فهو لا يصور مجرد امرأة وإنما يجسد حلما وعالما وأملا وهدفا يقترب كله من الضياع يقول:

من أنت لا أدرى ولا من دليل لا ومضة تعشى فؤادى الكليل

ولفحة توقظ فى خاطرى  
عينك فى عمقيهما عالم  
كوامن العمر القصير الجميل  
خصب الرؤى عات حفى ظليل  
ثم يقول :

من أنت يا نجما بعيد المدى  
عبء يشد الروح أنى سرت  
يسقط فى قلبى كعبء ثقیل  
مرتجة.. تحلم أين المقيبل  
نصل رهيف الحد مسنونه  
فى عمق أعماقى يجول  
لفح كعصف الريح فى نره  
ما حملته كاسيات الفصول  
سرب من الأحلام مذعورة  
ولت وفى الآثار منها فلول  
من لى بمن يشعل هذا الدجى  
ويملاً الزيت ويرعى الفتيل

لا شك أن تجربة الشاعر فاروق شوشة كما حملتها أعماله الشعرية الكاملة تضىء عالما يمت بوشائج عميقة إلى عالم الرومانسية ولكنها ليست الرومانسية التقليدية بل الرومانسية الثورية التى تحاول تغيير العالم بالحلم والسيف معا. كما إنها تضع لبنة قوية فى صرح حركة الشعر الحديث وفى الكيان الفنى الذى أسسه شعريا جيل فاروق شوشة والذى اصطلح على تسميته بجيل الستينيات.

